دراسات

التأسيس الممكن لتنظيم اجتماعي عقلاني لا يتناقض مع الدين حسب كتاب باروخ سبينوزا "رسالة في اللاهوت والسياسة"

الأستاذ الباحث

ابراهيم غرايبة

ابراهيم غرايبة
باحث في مركز الدراسات الاستراتيجية
الجامعة الأردنية
ibrahim.gharaibeh9@gmail.com

Received :29 / 5 / 2024
Revised: 22 / 6 / 2024
Accepted: 3 / 7 / 2024
Published: 1 / 8 / 2024

التأسيس الممكن لتنظيم اجتماعي عقلاني لا يتناقض مع الدين حسب كتاب باروخ سبينوزا" رسالة في اللاهوت والسياسة"

A Practical and Rational Approach to the Relationship Between Religion and Politics: An Analysis of Baruch Spinoza's" Theological-Political Treatise"

ملخص

تهدف الدراسة إلى تقديم مقاربة عملية تطبيقية قائمة على رؤية عقلانية نقدية لقضايا العلاقة بين الدين والسياسة، اعتمادا على تحليل كتاب باروخ سبينوزا "رسالة في اللاهوت والسياسة" باعتباره فيلسوفا عقلانيا مؤمنا بالله، ما زال حاضرا بكثافة في الفلسفة العالمية في كل اتجاهاتها وحقولها، ويُعدّ كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة" مرجعا تأسيسيا مهما في التفسير العقلي والفلسفي للدين. ومن الممكن أن يكون لهذا الكتاب تأثير إيجابي على تنظيم اجتماعي عقلاني يتفق مع الدين .

استخدمت الدراسة **المنهجية** التحليلية والاستنتاجية بتفكيك ودراسة كتاب سبينوزا " في اللاهوت والسياسة" ومحاولة تقديم خلاصات واستنتاجات معاصرة تصلح للتطبيق في عالمنا القائم اليوم. وخلصت الدراسة إلى **نتائج وتوصيات** تفيد أن المحتوى الديني هو عمليات فكرية متنوعة ومتعددة مستمدة من ثقة الناس وأسلوبهم في تلقي الدين وفهمه، ولا يمكن حمل الناس على فهم أو منعهم من فهم معين للدين. ولا مجال للسلطة السياسية سوى أن تترك المذاهب العلمية والفقهية تعمل، ويكون دورها تطبيق القانون ومنع الاعتداء عليه أو الإساءة إلى الحقوق العامة والفردية.

الكلمات المفتاحية: اللاهوت، التفسير العقلي للدين، التفسير الفلسفي للدين.

Abstract

This study aims to present a practical and applied approach based on a rational and critical vision of the issues surrounding the relationship between religion and politics. It does so by analyzing Baruch Spinoza's "Theological-Political Treatise." Spinoza, a rational philosopher and believer in God, remains a significant figure in global philosophy across various directions and fields. His "Theological-Political Treatise" is considered a foundational reference for the rational and philosophical interpretation of religion. This book has the potential to positively influence the establishment of a rational social organization compatible with religion.

The study employs analytical and deductive methodologies to deconstruct and examine Spinoza's "Theological-Political Treatise," aiming to provide contemporary summaries and conclusions applicable to our current world. The study concludes with findings and recommendations that suggest religious content comprises diverse and varied intellectual processes derived from people's confidence and their methods of receiving and understanding religion. It is impossible to compel people to adopt or prohibit a particular understanding of religion. The political authority has no choice but to allow scientific and jurisprudential doctrines to operate freely, with its role being to enforce the law and prevent violations or infringements on public and individual rights.

Key words: Theology**,** The rational interpretation of religion**,** The philosophical interpretation of religion**.**

مقدمة

ما زال الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا (١٦٣٢ – ١٦٧٧) حاضرا بكثافة في الفلسفة العالمية في كل اتجاهاتها وحقولها؛ فلسفة الدين، والأخلاق، وتاريخ الأفكار، والدراسات المقارنة في الفلسفة، ولم يتوقف تأثيره في الفلسفة على مدى القرون الماضية.

يُعدّ كتاب سبينوزا "رسالة في اللاهوت" من أول الدراسات العقلانية للدين وأهمها، ومازال حتى اليوم مرجعا تأسيسيا مهما في التفسير العقلي والفلسفي للدين. يقدم سبينوزا نظرية فلسفية شاملة حول الله والطبيعة والإنسان. ومن الممكن أن يكون لهذا الكتاب تأثير إيجابي على تنظيم اجتماعي عقلاني يتفق مع الدين في التركيز على العقلانية والمنطق في فهم العالم وتوجيه السلوك. والتأكيد على القيم الأخلاقية والاجتماعية كمتطلبات للسعادة التي يسعى إليها الإنسان. والنظر إلى الكون والطبيعة كمرشد روحي وعلمي لإدراك أو تقدير الصواب.

مشكلة الدراسة ومنهجيتها

هل يمكن للدول والمجتمعات أن تنشئ نظاما اجتماعيا سياسيا يتفق مع مقتضيات العلم والعقل والحرية وفي الوقت نفسه لا يتناقض مع الدين؟ كيف تساعد فلسفة الدين عند سبينوزا وخاصة في كتابة "رسالة في اللاهوت والسياسة" في التأسيس لتنظيم اجتماعي عقلاني لا يتناقض مع الدين.

تحاول الدراسة أن تلاحظ الأسس الفلسفية والعقلانية التي استخدمها سبينوزا لاستيعاب التطور العلمي والتحولات الاجتماعية نحو الحرية والعقلانية في التنظيم السياسي مع المحافظة على الإيمان بالله والانسجام مع الدين؛ مستخدمة منهجا تحليليا استنتاجيا يقوم على تفكيك ودراسة كتاب سبينوزا " في اللاهوت والسياسة" ومحاولة تقديم خلاصات واستنتاجات معاصرة تصلح للتطبيق في عالمنا القائم اليوم.

أهمية الدراسة وأهدافها

تهدف الدراسة إلى تقديم مقاربة عملية تطبيقية قائمة على رؤية عقلانية نقدية لقضايا العلاقة بين الدين والسياسة، وحدود وإمكانيات التنظيم الاجتماعي السياسي العقلاني القائم على حرية الاختيار والمراجعة دون تناقض مع الدين والإيمان. وفي ذلك فإنها تحلل كتاب باروخ سبينوزا "رسالة في اللاهوت والسياسة" باعتباره فيلسوفا عقلانيا مؤمنا بالله.

يقدر الباحث أن أهمية الدراسة في أنها ترشد المؤمنين بالله ليحافظوا على إيمانهم مع تمسكهم بحرياتهم العقلية والاجتماعية والفردية واعتقادهم المؤسس للتنظيم الاجتماعي والسياسي المستمد من الإيمان بقدرة الإنسان وحده معتمدا على عقله وفطرته التمييز بين الخير والشر، والضار والنافع، والقبيح والحسن.

كتاب" رسالة في اللاهوت والسياسة" عرض تحليلي

يركز سبينوزا على التوراة، ويستفيد من معرفته الواسعة باللغة العبرية ليقوم بدراسة فلسفية تاريخية معتمدا على فقه اللغة وتاريخها ليصل إلى نتائج جريئة مع تأكيده على الإيمان بالله وعدم عدائه للدين والكتب الدينية

يقول حسن حنفي في مقدمة ترجمته لكتاب سبينوزا إنه الفيلسوف الوحيد الذي استطاع أن يُطبِّق المنهج الديكارتي تطبيقًا جذريًا في المجالات التي استبعدها ديكارت من منهجه، خاصةً في مجال الدين. يحاول ديكارت أن يقدم أدلة عقلية وعلمية لإثبات الدين والعقائد الدينية، وأما سبينوزا فهو كما يقول حنفي طبَّق منهج الأفكار الواضحة والمُتميزة في ميدان الدين والعقائد، فليس العقل فقط هو أعدَلُ الأشياء قسمةً بين الناس، بل هو أيضًا أفضل شيء في وجودنا ويكون في كماله خيرُنا الأقصى.

يؤكد سبينوزا في عنوان توضيحي بعد العنوان الرئيسي لكتابه (رسالة في اللاهوت) "وفيها تتمُّ البرهَنة على أنَّ حرية التفلسُف لا تُمثل خطرًا على التقوى أو على السَّلام" ويؤكد أيضا على أن حرية الفكر لا تُمثل خطرًا على الإيمان، أو بتعبيرٍ آخر، أنَّ العقل هو أساس الإيمان. والثاني: إثبات أنَّ حُرية الفكر لا تُمثل خطرًا على سلامة الدولة، أي أنَّ العقل أيضًا هو أساس كلِّ نظامٍ سياسي تتَّبِعُه الدولة.

يعرف سبينوزا النبوَّة أو الوحي بأنها "المعرفة اليقينية التي يُوحي لله بها إلى البشَر عن شيءٍ ما، والنبي هو مُفسِّر ما يُوحي لله به لأمثاله من الناس الذين لا يَقدِرون على الحصول على معرفةٍ يقينية." يقول: النبوَّة تتطابق تمامًا مع المعرفة الفطرية؛ لأنَّ ما تعرفه بالنُّور الفطري يعتمد على معرفة الله وحدَها وعلى أوامره الأزلية." ذلك أن المعرفة الفطرية معرفة إلهية بمعنى الكلمة، فإنَّنا لا يُمكن أن نُسمِّي من يقومون بنشرها أنبياء، إذ يستطيع كلُّ فردٍ أن يُدرِك تعاليم المعرفة الفِطرية ويفهمها باليقين نفسه، دون الاعتماد على الإيمان وحده. يجِب ألَّا نعتقِد عندما نقرأ في الكتاب عبارة قال الله إنَّ هناك نبوَّةً أو معرفة تعلو على الطبيعة إلَّا عندما يؤكد الكتاب ذلك بصريح العبارة، أو عندما تؤكد ظروف الرواية أنَّ نبوَّةً أو وحيًا قد حدَث بالفعل.[1] وعندما نفحص الكتب المُقدَّسة نجد أنَّ لله قد أوحى للأنبياء بالكلام أو بالمظاهر الحِسّية أو بالطريقتَين معًا، وفي بعض الأحيان يكون الكلام والمظهر الحِسّي حادثًا

بالفعل، لم يَتخيَّله النبيُّ لحظة سماعه أو رؤيته، وأحيانًا أخرى يكون مُجرَّد خيالات، بحيث تكون مُخيِّلة النبي مُهيَّأة، حتى وهو في اليقظة، على نحوٍ يجعله يتخيَّل أنه يسمع صوتًا أو يرى شيئًا بوضوح [٢] ولمَّا كان الأنبياء قد أدركوا الوحيَ الإلهي بالاستعانة بالخيال، فلا شكَّ أنَّ كثيرًا من تعاليمهم قد تعدَّتْ حدود الذهن؛ لأننا بالكلمات والصور نستطيع أن نُكوِّن أفكارًا تزيد عن تلك التي نُكوِّنها بالمبادئ والمفاهيم الذِّهنية التي تقوم عليها معرفتنا الطبيعية.[٣]

الأنبياء

يقول سبينوزا: النبوَّة لا تتضمَّن بذاتها اليقين، ما دامت تعتمد على الخيال وحدَه، فالأنبياء لم يَكونوا على يقينٍ من الوحي الذي وهَبَهُم لله إيَّاه عن طريق الوحي نفسه، بل اعتمادًا على آيةٍ (علامةٍ) ما. ويتَّضِح ذلك عند إبراهيم عندما طلَب آيةً بعد سَماعِهِ وعدَ لله، فقد كان مُؤمنًا بالله ولم يَطلُب آيةً [٤] تُثبت اعتقاده، بل لِيعلَمَ أنَّ لله أعطاه هذا الوعد، كما يَتَّضِح ذلك بصورةٍ أوضح فيما يقوله [٥] «اجعل لي آية (حتى أعلَم) على أنك أنت الذي كلَّمني »[٦] ويجد أن اليقين النبوي كُلَّه يقوم على هذه الأسُس الثلاثة: تَخيُّل الأنبياء للأشياءِ المُوحى بها كأنَّها ماثِلة أمامهم كما يحدُث لنا عادةً في حالة اليقظة عندما نتأثَّر بالأشياء. والآية. ومَيل قلوبهم إلى العدْل والخير، وهذا أهمُّ شيء. ومع أنَّ الكتاب (التوراة) لا يذكُر الآية دائمًا، فيجِب أن نعتَقِد أنَّ كلَّ نبيٍّ كانت له آية. والواقع أنَّ الكتاب لا يذكُر في الرواية عادةً جميع الظروف والملابسات، بل يفترِض أنَّ الأمور معروفة.[٧]

لا يرى سبينوزا في العهد القديم من تحدَّث عن الله بطريقةٍ عقلية إلَّا سُليمان "الذي استطاع بالنُّور الفطري أن يتفوَّق على عصره كله؛ ولذلك رأى نفسه أسمى من الشريعة ولم يعبأ بكلِّ القوانين الخاصَّة بالملك"[٨] ويلاحظ أن الوحي الذي أرسله الله كان يتغيَّر وفقًا لفهم الأنبياء وآرائهم. وأن الأنبياء كانوا يَجهلون الموضوعات النظرية الخالِصة التي لا تتعلَّق بالإحسان وبالحياة العملية. وكانت آراء الأنبياء مُتعارِضة فيما بينها؛ "لذلك، فلا جدوى على الإطلاق من أن نلتمس لدَيهم معرفة بالأشياء الطبيعية والرُّوحية. [٩]

هل يعكس الدين فهما للطبيعة وقوانينها؟

يقول سبينوزا إن قوانين الطبيعة الشاملة التي يَحدُث كلُّ شيءٍ ويتحدَّد طبقًا لها، ليست سوى أوامر لله الأزلية التي تنطوي على حقيقةٍ وضرورة أزلية. وإذًا فلو قُلنا إن كلَّ شيء يحدُث طبقًا لقوانين الطبيعة أو يَنتظِم بحكم لله أو بأمره فإنَّنا نقول الشيء نفسه.[١٠]

يقدم سبينوزا قراءة نقدية مميزة للكتاب المقدس، وكما يقول بحرية ذهنية كاملة، فلا يثبت شيئًا من تعاليمه أو يقبَلَه ما لم يتمكن من استخلاصِه بوضوحٍ تامٍّ. وعلى أساس هذه القاعدة الحَذِرة وضع منهجًا لتفسير الكُتُب المُقَّدسة.[١١] ويقول إنه لم أجد فيما يُعلِنه الكتاب صراحةً شيئًا يُخالف العقل أو يُناقِضُه، "ووجدتُ أن التعاليم التي أتى بها الأنبياء سهلة للغاية يسهُل على الجميع إدراكها، وكلُّ ما في الأمر أنَّ هذه التعاليم قد عُرِضت بأسلوبٍ شاعري واستندت إلى أقدَرِ الحُجَج على حضِّ عامَّة الناس على طاعة لله. وبناءً على ذلك، فقد اقتنعْتُ اقتناعًا جازمًا بأنَّ الكتاب يترُك للعقل حُريَّته الكاملة، وبأنه لا يَشترك مع الفلسفة في شيء، بل إن لكلٍّ منهما مَيدانه الخاص.[١٢]

إن الكلام الذي أوحى به الله كما يجد سبينوزا ليس عددًا مُعيَّنًا من الأسفار بل فكرة يَسيرة من الأفكار الإلهية أوحي بها للأنبياء، وأعني بها وجوب طاعة لله بروحٍ خالصة، وذلك بِمُمارسة العدل والإحسان. يمكن، بل يجِب، إعطاء الحرية لجميع الناس دون أن تتعرَّض سلامة الدولة ويَلحَق بها ضرَرٌ بالغ. فالحقُّ الطبيعي لا يُحتِّم على أيِّ شخصٍ أن يعيش على هوى الآخر، بل إنَّ كلَّ فردٍ هو الضامِن لحُريَّتِه الخاصَّة، كما أبيَّن أنه لا يُمكن لأحدٍ أن يتخلَّى عن هذا الحق إلَّا من يُفوِّض لفردٍ آخَر قُدرته على الدفاع عن نفسه، بحيث يكون صاحِب الحقِّ الطبيعي المُطلَق هو بالضرورة من فوَّض إليه الجميع قُدرتهم على الدِّفاع عن أنفسهم وحقَّهم في أن يَحيَوا كما يَشاءون. ولكي تضمَن الدولة سلامتها، يَجِب أن يكون كلُّ فردٍ حرًّا في أن يُفكِّر فيما يُريد وأن يُعبِّر عن تفكيره. [١٣]

القانون الإلهي

يلخص سبينوزا فكرة القانون الإلهي في قضية واحدة؛ هي حبُّ لله باعتباره خيرًا أقصى.[١٤] ويقول: إذا نظرنا إلى طبيعة القانون الإلهي فإنَّنا نلحظ أنه شامل، أي إنه يَعمُّ الناس جميعًا، لأنَّنا قد استنبطناه من الطبيعة الإنسانية منظورًا إليها في طابعها الكُلي الشامل. وإنه لا يتطلَّب أن نُصدِّق بروايات تاريخية، أيًّا كان مضمونها، ذلك لأنَّهُ لمَّا كان هذا القانون الإلهي الطبيعي يُعرَف عن طريق تأمُّل الطبيعة البشرية وحدَها.

إنَّ هذا القانون الإلهي الطبيعي لا يتطلَّب أفعالًا يتعدَّى تبريرُها حُدود الفَهْم الإنساني. والواقع أنَّ النور الفطري لا يتطلَّب شيئًا لا يبلغه هذا النور نفسه، وكل ما يحتاج إليه هو ما يُمكنه أن يُعرِّفنا إيَّاه بوضوح تامٍّ بوصفه خيرًا، أي بوصفه وسيلةً نحصُل بها على سعادتنا. وأعظم جزاءٍ يُعطيه القانون الإلهي هو معرفة هذا القانون نفسه، أي معرفة لله وحُبِّه باعتبارنا موجودات حرَّة حقًّا، تتمتَّع بنفسٍ صافية وثابتة، على حين أنَّ العقاب إنما يكون في حِرماننا من هذه الخيرات ووقوعنا في عبودية الجسد، أي تكون أنفسنا مُتغيِّرة مُتقلِّبة. [١٥]

ماذا يقول الكتاب المُقدَّس بشأن هذا النور وهذا القانون الطبيعي؟ وما هي الغاية التي استُهدِفت فيما مضى من فرْض الشعائر الدينية؟ وما الفائدة من معرفة الروايات المُقدَّسة والتصديق بها؟ يجيب سبينوزا بأن القانون الإلهي الذي يُعطي الناس السعادة الحقَّة ويعلمهم الحياة الحقيقية مُشترَك بين الناس جميعًا، بل إنَّنا استنبطناه من الطبيعة الإنسانية، بحيث يجب علينا أن نعتبِرَه فطريّا في النفس الإنسانية، وكأنه مَسطور فيها. فالمسيح لم يُبعث للمحافظة على الدولة ولتشريع القوانين، بل لتعليم القانون الشامل وحدَه. من ذلك نُدرك بسهولة أنَّ المسيح لم ينسخ شريعة موسى مُطلقًا، لأنَّهُ لم يشأ وضع قوانين جديدة للمُجتمع، وكان هَمُّه الوحيد إعطاء تعاليم خُلقية وتمييزها عن قوانين الدولة، وهذا يرجِع بوجهٍ خاصٍّ إلى جهل الفريسيين الذين كانوا يَظنُّون أن تطبيق القواعد القانونية للدولة، أي شريعة موسى، كافٍ ليعيشوا سُعداء، مع أنَّ هذه الشريعة لم تكُن تهدُف إلا مصلحة الدولة، ولم تكن غايتُها تنوير العبرانيّين، بل إرغامهم.[١٦]

إنَّ الطقوس الدِّينية لا تُوصِّل إلى السعادة الروحية، وطقوس العهد القديم، بل وشريعة موسى كلها، تتعلَّق بدولة العبرانيين وحدَها، وبالتالي تهدُف إلى تحقيق بعض وسائل الراحة المادية.[١٧] لكن تقديم هذه القوانين والتعاليم في صيغة دين سماوي يحذر من مخالفته يجعلها متقبلة. يقول موسى بن ميمون لو قدمت الشريعة كما يمليها العقل فإنها تتعرض للتفنيد والجدال ولا يلتزم بها أكثر الناس.

المعجزات

يميل العامة كما يقول سبينوزا إلى البحث عن الخوارق والمعجزات ويتطلعون إليها كدليل على قدرة الله وعنايته. ولا تبدو لهم قدرة لله أحقَّ ما تكون بالإعجاب إلَّا إذا تصوَّروا قُدرة الطبيعة وكأنَّها مقهورة على يدِ الله. والحال كما يؤكد سبينوزا أنه لا يحدُث شيء يُناقِض الطبيعة، فالطبيعة تحتفِظ بنظامٍ أزلي لا يتغيَّر، ولا نستطيع أن نعرف بالمُعجزات ماهية الله أو وجوده، ومن ثَمَّ لا نستطيع أن نعرف العناية الإلهية، على حِين أنَّنا نستطيع أن نعرفها كلها بطريقةٍ أفضلَ بكثيرٍ عن طريق قانون الطبيعة الثابت الذي لا يتغيَّر. إن الكتاب نفسه لا يَعني بأمر لله وبمشيئته، ومِن ثَمَّ بالعناية الإلهية، إلَّا نظام الطبيعة ذاته، بوصفه نتيجةً ضرورية للقوانين الأزلية. ويترتب على هذه المبادئ (لا شيء يحدُث في الطبيعة إلَّا واتَّبع قوانينها، وأنَّ هذه القوانين تَسري على كلِّ ما يتصوَّره. وللعقل الإلهي، للطبيعة نظام ثابت لا يتغيَّر) بوضوحٍ تامٍّ أنَّ لفظ المُعجِزة لا يُمكن أن يُفهَم إلَّا في صِلته بآراء الناس.[١٨]

روت الكتُب المُقدَّسة كثيرًا من الوقائع التي يُقال عنها مُعجزات، ويُمكن دون عناءٍ تعيين عِلَّتِها بالمبادئ المعروفة للأشياء الطبيعية. فلا يُمكن معرفة ماهية لله أو وجوده أو عنايته عن طريق المُعجزات، بل

إننا، على العكس من ذلك، نستطيع أن نُدرك ذلك كله بطريقة أوضح عن طريق نظام الطبيعة الثابت الذي لا يتغيَّر. لكن لمَّا كان وجود الله غير معروف بذاته، فمن الواجب استنتاجه من أفكار تبلغ من الرُّسوخ والثبات حدًّا لا يُمكن معه وجود أو تصوُّر قوَّةٍ قادرة على تغييرها. فكلَّ ما نعرفه بوضوحٍ وتَميُّزٍ يجِب أن نعرفه إمَّا بذاته وإما بشيءٍ آخَر يُعرَف بذاته بوضوح وتميز؛ لذلك لا نستطيع، عن طريق المعجزة، أي عن طريق عمَلٍ يتجاوز حدود فَهْمنا، معرفة ماهية الله أو وجوده أو أي شيءٍ آخَر يتعلَّق بالله وبالطبيعة.

فحتى لو كنَّا نستطيع أن نستنتِج من المُعجزات شيئًا فإنَّنا لا نستطيع على الإطلاق أن نستنتِج منها وجود الله لأنَّ المُعجزة عمل محدود، لا يدلُّ إلَّا على قوةٍ محدودة، فمن المؤكد إذًا أننا لا نستطيع أن نَستنتِج من مِثل هذا المعلول وجود عِلَّة لا حدود لقوَّتِها، بل على أكثر تقدير، لأنه يَنتُج عن اجتماع كثيرٍ من العِلَل عملٌ أقلُّ قوة بالفعل من قُوَّة هذه العِلَل مُجتمعة، ولكنه يفوق بكثيرٍ قوَّة كلِّ عِلَّةٍ منها على حدة. لانستطيع بالمُعجزات أن نعرِف الله ووجوده وعنايته، وأنَّنا نستطيع استِنباطها على نحوٍ أفضلَ بكثيرٍ من نظام الطبيعة الثابت الذي لا يتغيَّر إن التصديق بالمُعجزة يجعلنا نشكُّ في كلِّ شيء ويؤدِّي بنا إلى الإلحاد[١٩]

يخلص سبينوزا إلى القول إن أوامر الله ووصاياه ليست في الواقع إلَّا نظام الطبيعة. وأننا نستنتج على نحوٍ قاطع أن كلَّ ما يَرويه الكتاب على أنه حدَث بالفعل، قد حدث بالضرورة طبقًا لقوانين الطبيعة، شأنُهُ شأن كلِّ ما يحدُث، وإذا وجدْنا حادثةً ما نستطيع أن نُوقِنَ بأنها تُناقِض قوانين الطبيعة أو بأنها لم تصدُر عنها فيجِب أن نعتقد أنها إضافة إلى الكتب المُقدَّسة أقحَمَها العابثون بالمُقدَّسات؛ ذلك لأنَّ كلَّ ما يُناقِض الطبيعة يُناقِض العقل، وكل ما يُناقِض العقل مُمتنِع ومِن ثَمَّ وجَبَ رفضُه.[٢٠]

الكتاب شأنه شأن الطبيعة، لا يُعطينا تعريفات للأشياء التي يتحدَّث عنها؛ وعلى ذلك فكما يَجِب أن نَستنتِج

تعريفات الأشياء الطبيعية من أفعال الطبيعة المُختلفة، كذلك يَجِب استخلاص التعريفات التي لا يُعطيها الكتاب من مُختلف الرِّوايات التي نَجِدها فيه بشأن كلِّ موضوع. فالقاعدة العامَّة التي نَضعُها لتفسير الكتاب هي ألَّا نَنسِبَ إليه أيَّةَ تعاليم سوى تلك التي يُثبِت الفحص التاريخي بوضوحٍ تامٍّ أنه قال بها. يَجِب أن يُفهَم طبيعة وخصائص اللغة التي دُوِّنت بها أسفار الكتاب المقدس والتي اعتاد مُؤلِّفوها التحدُّث بها. ويجِب تجميع آياتِ كلِّ سِفر وتصنيفها تحت موضوعات أساسية عدَدُها محدود، حتى نستطيع العثور بسهولةٍ على جميع الآيات المُتعلِّقة بالموضوع نفسه، وبعد ذلك نجمع كل الآيات المُتشابهة

والمُجملة، أو التي تُعارض بعضها البعض. ويجِب أولًا وقبلَ كُلِّ شيءٍ في بحثِنا عن معنى الكتاب الحِرص على ألَّا ينشغِل ذِهنُنا باستدلالاتٍ قائمة على مبادئ المعرفة الفطرية فضلًا عن الأحكام المُسبقة.[٢١]

وحتى لا نخلِط بين التعاليم الأزلية وتعاليم أخرى لا تصلُح إلَّا لزمانٍ مُعين ولمجموعةٍ مُعيَّنة من الناس، فيَجِب أن نعرِف في أيَّةِ مُناسباتٍ وفي أيِّ زمانٍ ولأي أمُّةٍ وفي أيِّ عصرٍ كُتبت هذه التعاليم كلها. يجِب أيضًا أن نَعرِف المُلابسات الأخرى المذكورة آنِفًا لكي نعلم إلى أيِّ مدًى يُمكننا الاعتماد على سُلطة كلِّ كتاب، ولكي نعلم أيضًا إنْ كانت هناك يَدٌ آثِمة قامت بتحريف النص، أو — في حالة كونه غير مُحرَّف — إن كانت قد تسرَّبَت إليه بعض الأخطاء، أو أنَّ رجالًا أكفاء جديرين بالثقة قد قاموا بتصحيح هذه الأخطاء.[٢٢] فلمَّا كان الخلاص الحقيقي والسعادة الرُّوحية يَكمُنان في طمأنينة النفس، وكنَّا لا نجد الطمأنينة الحقيقية إلَّا فيما نعلمه بوضوح تام، فمن الواضح أنَّنا نستطيع أن نُدرِك عن يقينٍ فِكر الكتاب فيما يتعلَّق بالأمور الجوهرية للخلاص والضرورية للسَّعادة الرُّوحية.[٢٣]

تفسير الكتاب ونقده

يشير سبينوزا إل أن ابن ميمون يعتقِد أنَّ لكلِّ نَصٍّ من الكتاب معاني كثيرة بل ومعاني مُتعارِضة، وأنَّنا لا نستطيع أن نَعرِف المعنى الحقيقي لأيِّ نصٍّ إلَّا بقدْرِ ما نعرف أنه — كما نُفسِّره نحن — لا يحتوي على شيءٍ يُعارض العقل ويناقضه. فإذا فُسِّر النصُّ تفسيرًا حرفيًّا وكان مُناقضًا للعقل وجَبَ تفسير النصِّ تفسيرًا آخر مهما كان واضحًا.

يعود فهم الكتاب وتفسيره إلى كل فرد، فلا يمكن مطالبته بالإيمان من غير صلاحيته بالتفسير كما التلقي. يقول سبينوزا: لَمَّا كانت السلطة العُليا في تفسير الكتاب ترجِع إلى كلِّ فرد، فلا ينبغي أن تكون هناك أية قاعدة أخرى للتفسير سوى النور الطبيعي المُشترك بين جميع الناس، فلا يُوجد نور يفوق الطبيعة ولا تُوجَد سُلطة خارجية، فمن الواجب إذًا ألَّا يكون هذا المنهج من الصعوبة بحيث لا يُمكن أن يَتَّبِعه إلَّا الفلاسفة ذَوو البصيرة النافذة، بل يَجِب أن يكون في مُتناوَل الذهن العادي المُشترك بين جميع الناس، ومُتناسِبًا مع قدرتهم وقد بَيَّنَّا أنَّ منهجنا كذلك، وقد تَبيَّن لنا بالفعل أنَّ الصعوبات التي نَجِدها فيه ترجِع إلى إهمال الناس لا إلى طبيعة هذا المنهج.[٢٤]

يؤكد سبينوزا نتيجة خلص إليها وهي أن كلام الله الأبدي، وعهدَه والدينَ الحقَّ، مسطورٌ على نحوٍ إلهي في قلب الإنسان أي في الفكر الإنساني، وهذا هو الميثاق الحقيقي الذي طبَعَه الله بخاتمه؛ أي

بفكرته وكأنَّه طبعَهُ بصورةٍ لألوهيته، وأن الدين لا يحتاج إلى مُحسِّنات من الخُرافة، بل على العكس تَضيعُ روعتُه لو زيَّنَّاه بمثل هذه الأوهام[٢٥]

إن "الكتاب" كما يؤكد سبينوزا لا يحتوي إلَّا على تعاليم يَسيرة ولا يَحثُّ إلَّا على الطاعة، وتقتصِر عقيدتُه في الطبيعة الإلهية على ما يُمكن اتِّخاذه قاعدة عملية في حياة الناس اليومية. والمعرفة العقلية، أي المعرفة الصحيحة لله ليست كالطاعة هِبَة لكل المؤمنين. إن المعرفة الوحيدة التي طلَبَها لله من جميع الناس بلا استثناء، على لِسان الأنبياء، والتي لا يُمكن إعفاء أحدٍ منها، هي معرفة العدالة الإلهية والإحسان الإلهي.

وأما المعرفة العقلية فلا تنتمي في شيء إلى الإيمان وإلى الدين المُوحى به، وبالتالي يستطيع الناس أن يُخطئوا فيها كما يشاءون دون أن يرتكبوا جُرمًا. وليس هناك ما يدعو للدهشة إذا كان الله قد تلاءم مع خيال الأنبياء وتصوُّراتهم المُسبَقة أو إذا تصوَّر المؤمنون الله تصوُّرات مُختلفة كلَّ الاختلاف، وليس هناك أيضًا ما يدعو للدهشة إذا وجدنا الكتب المُقدسة تتحدَّث عن لله بألفاظٍ لا تليق به، فتنسِب إليه يدَين وقدَمَين وعينَين وإذَاين، كما تنسب إليه حركات في المكان. وانفعالات للنفس كالغيرة والرحمة. وكذلك تصفه كقاضٍ والواقع أنَّ الكتاب يتحدَّث على مستوى فَهم العامَّة الذين يهدف الكتاب إلى أن يجعلهم مُطيعين، لا مُتفقِّهين، على أنَّ عامَّة اللاهوتيين عندما أدركوا بالنور الطبيعي أن صِفةً مُعينة من هذه الصفات التي تُعطَى لله لا تتَّفِق مع الطبيعة الإلهية طالبوا بالالتجاء إلى التفسير المجازي، وبأنَّ من الواجب، على العكس من ذلك، أن يُقبَل حرفيًا كلُّ ما يتجاوز حدود فهمهم. ولكن لو كان من الواجب تفسير جميع نصوص الكتاب من هذا النوع تفسيرًا مجازيًا، لوجب أن نُسلم بأن النصَّ لم يُكتب للعامَّة والجهلة، بل كان مُوجَّهًا إلى أكثر الناس خبرةً ومعرفة، وإلى الفلاسفة بوجهٍ خاص. والواقع أنه لو كان التسليم بروح تقيَّة صافية بالمُعتقدات التي ذكرناها، بدافعٍ من التقوى وصفاء النفس كفرًا، لحرَص الأنبياء أشدَّ الحرص على تجنُّب مثل هذه العبارات، وذلك على الأقل لضعف ذهن العامَّة، ولِيُعبِّروا عن الصفات الإلهية على النحو الذي ينبغي على كلِّ فرد إدراكها عليه بوضوحٍ وصراحة، ولكن الأنبياء لم يفعلوا ذلك. وإذًا فلا ينبغي الاعتقاد بأنَّ الآراء في ذاتها ـــ بغضِّ النظر عن الأعمال ـــ تنطوي على أي قدرٍ من الإيمان أو الكفر، فنحن نقول عن الاعتقاد الإنساني أنه ينطوي على إيمان أو كفر بقدْرِ ما يحثُّ المؤمنين به على الطاعة، أو يُبيح لهم الخطيئة والعصيان؛ وعلى ذلك فإنَّ من يَصحُّ اعتقاده ويعصي، يكذب إيمانه، وعلى العكس فإنَّ من يُخطئ في اعتقاده ويطيع، يصدُق إيمانه؛ ذلك لأنَّ معرفة لله الحقيقية، كما بيَّنَّا، ليست أمرًا بل هبةً إلهية، ولله لم يطلُب من الناس إلا معرفة عدله وإحسانه، وهي معرفة لا تُطلَب من أجل العلم، بل من أجل الطاعة وحدَها.[٢٦]

ما الإيمان؟ وأي الناس هم المؤمنون؟

يفتتح سبينوزا هذا الفصل بالقول "ما من مُجدِّف إلَّا ويَستنِد إلى نص" ثم يقرر أن الكُتب المُقدَّسة ليس لها مُؤلِّف واحد، ولم تُكتَب للعامَّة الذين عاشوا في عصرٍ بعيْنِه، بل هي من عمل عددٍ كبير من الناس ذوي أمزِجةٍ مختلفة عاشوا في عصور مختلفة. ويستدرك سبينوزا بالقول إن ذلك لا يعني اتِّهامهم بالكُفر لمجرَّد كونهم قد أوَّلُوا كلام الكتاب حسْب مُعتقداتهم؛ ذلك لأنه، مِثلما أن الكتاب قد وُضِع من قبل على قدْر أفهام العامَّة، فإنَّ لكلِّ شخصٍ الآن الحق في أن يُكيِّفه حسب معتقداته الخاصة، إذا كان يرى في ذلك وسيلة لطاعة الله، في الأمور المُتعلِّقة بالعدل والإحسان، بنفسٍ راضيةٍ تمام الرضا. لكن يجب أن يعترفوا للآخرين بالحرية نفسها. ولا يجوز لهم أن يحتقِروا من يُخالفونهم في الرأي، فيَعُدُّونهم أعداء الله.

وأخيرا يقترح سبينوزا قواعد الإيمان الشامل على أساس الإيمان بالله، وصفاته بما هي الخير المطلق. وأنه واحد لا شريك له؛ حاضر في كلِّ مكان ويرى كلَّ شيء، يفعل ما يشاء بمشيئةٍ مُطلقة وبفضل ينفرد به.

عبادة الله وطاعته لا تكون إلَّا في العدل والإحسان، وأخيرًا، يغفر الله للتائبين خطاياهم، وكل بني آدم خطاؤون. فهذا أمر لو لم يُسلَّم به ليئس الجميع من خلاصهم، ولَمَا وجدوا سببًا للإيمان بالرَّحمة الإلهية. أما من يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن لله برحمته وبفضله الذي وسِع كل شيء يغفر ذنوب البشر حقًّا، ومن ثَمَّ من يشتاق حبَّ لله، فإنه يعرف المسيح حقًّا بالرُّوح، ويكون المسيح فيه. ذلك أن أفضل المؤمنين ليس بالضرورة من يعرِض أفضل الحجج، بل هو الذي يقدِّم أفضل أعمال العدل والإحسان[٢٧]

ينفي سبينوزا وجود علاقة وثيقة بين الإيمان واللاهوت من ناحية وبين الفلسفة من ناحية أخرى، فالفلسفة تقوم على الأفكار المُشتركة المستخلصة من الطبيعة وحدها. أما الإيمان فأسُسه هي التاريخ وفِقه اللغة، وهي أسُس ينبغي أن تُستمَدَّ من الكتاب والوحي وحدَهما.

هل يجب إخضاع اللاهوت للعقل؟ هل يجب إخضاع العقل للاهوت؟ يجيب سبينوزا إن الكتاب لا يعلم الفلسفة بل يدعو إلى التقوى، ومضمونه كله مُهيأ على قدر فهم العامة وأحكامهم المُسبَقة. وإذًا فمن يريد إخضاع الكتاب للفلسفة فإنه ينسِب بخياله إلى الأنبياء أفكارًا لم تخطُر ببالِهم حتى في الحلم، ويُسيء تأويل فكرهم، وعلى العكس من ذلك، فإن من يجعل العقل والفلسفة خادِمَين للاهوت، يُضطرُّ إلى قبول الأحكام المُسبقة للعامة في العصور الماضية على أنها أمور إلهية، بحيث تطغى هذه الأحكام المُسبقة

على ذهنه وتُعميه كليةً. الواجب افتراض صحَّة هذه النصوص كلها، كما يدعي هذا الكتاب، لأننا لا ينبغي أن نُحكِّم العقل في مثل هذه الأمور. من الخطأ البَيِّن أنْ يُريد المرء إقامة سلطة الكتاب على

براهين رياضية؛ ذلك لأنَّ سلطة الكتاب تتوقَّف على سُلطة الأنبياء، فلا يمكن إذًا البرهنة عليها بحُجَج أقوى من تلك التي اعتاد الأنبياء استعمالها لإقناع الناس بسُلطتهم، بل إنَّ يقيننا نفسه بهذا الموضوع لا يُمكن أن يرتكز على أي أساس سوى هذا الذي أقام عليه الأنبياء أنفسهم يقينهم وسُلطتهم الخاصة. الكتاب يُقدِّم عزاءً كبيرًا للناس، إذ يستطيع الجميع طاعته، على حين تستطيع فئةٌ ضئيلة للغاية من البشر أن تَصِل إلى حالة الفضيلة عن طريق العقل. وعلى ذلك فلو لم تكن لدَينا شهادة الكتاب، لتملَّكَنا الشكُّ في خلاص السَّواد الأعظم من الناس[٢٨]

التأسيس الممكن لتنظيم اجتماعي عقلاني لا يتناقض مع الدين

يفسر الخوف والتأمل مسار الإنسانية والتطور الحضاري والتكنولوجي، وتشير دراسات كثيرة إلى "دوائر الخوف محفوظة في الثدييات، بما في ذلك البشر"[٢٩]ولا بد أنها أيضا مفسر تأسيسي للفكر الديني السائد، فالإنسان أنشأ حول الخوف بما هو البقاء والتأمل بما هو تحسين البقاء منظومة الموارد والأعمال والقيم، فلأجل أن يبقى الإنسان حيا سعى لأجل تأمين الغذاء والدفء واللباس، وفي ذلك أنشأ العمل والصيد والرعي والأدوات والقيم التنظيمية والاجتماعية والمهارات والمعارف.

يؤدي الغموض أو نقص المعرفة إلى الخوف، وهذا يفسح المجال للخرافة والعرافين. وليس سبب الخرافة كما يدَّعي البعض فكرة غامضة من الألوهية موجودة في أذهان البشر، فإننا نلحَظُ أن كلَّ الناس يميلون إليها بطبيعتهم، كما نلحظ أنها لا بُدَّ أن تكون مُتغيِّرة ومُتقلِّبة إلى أقصى حد، شأنها في ذلك شأن مُعظم أوهام النفس ودوافع الجنون الشديد. ونلحَظُ أخيرًا أنَّ الخُرافة لا تعتمد إلا على التمنِّي والحقد والغضب والخداع؛ لأنها لا تقوم على العقل بل تقوم على الانفعال وحدَه وعلى أقوى الانفعالات كلها؛ ولَمَّا كان عامَّة الناس أشقياء فإنهم لا يَصِلون أبدًا إلى حالة رضاءٍ دائمة، ولا يجدون تخفيفًا لشقائهم إلَّا بأوهامٍ جديدة يَسعدون بها لأنها لم تخدعهم بعد، وقد كان هذا التقلُّب سببًا في اضطراباتٍ عديدة وحروب بشِعة. يقول كوينتوس كوريتسو (مؤرخ عاش في القرن الأول الميلادي) الخُرافة هي أكثر الوسائل فاعِليَّةً لحُكم العامَّة.

"كان النص الأكثر أهمية في نهاية العصور الوسطى هو الكتاب المقدس. وقد تم نشره في مخطوطة على رق مغلف بين أغلفة خشبية. كان إنتاج مثل هذا الكتاب يستغرق وقتًا طويلاً ومكلفًا. أدى إعلان مارتن لوثر عن ٩٥ أطروحة موجهة ضد ممارسات وسلطة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية إلى معارضة

سريعة من الكنيسة. ومع ذلك، أدى التوفر الحديث للورق والطباعة بالإضافة إلى طباعة الصور إلى التوزيع السريع للكتاب المقدس باللغة الألمانية. حظرت سلطات الكنيسة انتشار معرفة القراءة والكتابة

خارج نطاق رجال الدين، لكن نشر الكتاب المقدس لوثر تضمن استخدام تقنيات يمكن تطبيقها على تخصصات أخرى، مما أدى إلى تحسين جودة المعلومات التي استندت إليها أنشطتهم. وشمل ذلك ممارسة الجراحة."[٣٠]

إلى أي حد تساهم منظومة الخوف في تكوين الفكر الديني؟ يقول باروخ سبينوزا: إن الوعي الديني سواء كان متقدما أو خرافيا مرده إلى الخوف، وفي خوف الإنسان من الموت أو لمواجهة الطبيعة وظواهرها تقدم الكهنة والعرافون ورجال الدين ليساعدوا الناس في تدبير حياتهم، والحصول على الأمن والطمأنينة.

وفي التنظيم السياسي والاجتماعي للجماعات الإنسانية (أسر وجماعات عمل وعشائر وقبائل ومدن وقرى وممالك) نشأت حاجة للدوافع الاجتماعية والثقافية لترسيخ المبادئ والقيم التي تحمي الجماعات والأعمال، مثل التعاون والتضامن والسلام والمشاركة، ولكن لم يكن ممكنا على الدوام تشكيل جميع الناس في منظومات ملتزمة عقليا لأجل تلافي الخطر والخطأ والبحث عن المنفعة والتزام الحقوق والواجبات، فالأهواء والمصالح والتفاوت الإنساني ينشئ أيضا تحديات كبيرة للقيم الصائبة والعادلة.

"لماذا يهيمن الخوف على الأمل في حياة الأفراد والجماعات على أساس؟ من المعرفة المتراكمة في علم النفس وعلم الأعصاب وعلم اجتماع العواطف إلى أن الخوف، باعتباره عاطفة أساسية، يرتكز على الحاضر المجرب ويرتكز عليه في الماضي المحفوظ، الذي تتم معالجته بوعي ودون وعي، وعلى النقيض من ذلك فإن الأمل باعتباره عاطفة ثانوية؛ ينطوي على نشاط معرفي يتطلب الترقب والبحث عن أفكار جديدة وبالتالي يقوم على العمليات المعقدة للإبداع والمرونة. ولذلك فإن الأمل غالباً ما يسبقه ويمنعه خوف عفوي يتم تفعيله تلقائيا وأسرع. الخوف والأمل يمكن أن يصبحا جماعيين. التوجه العاطفي، ويتم تقديم المجتمع الإسرائيلي كمثال.[٣١]

المعتقدات العقلية والمنطقية بطبيعتها تظل خاضعة للمراجعة والتغير والشك، ما يجعلها دائما هشة وغير يقينية، كما أنها تنشئ الإحباط كلما عجزت عن تقديم حلول وأفكار كافي لتلافي الخطر أو بعث الأمل والطمأنينة، وعلى سبيل المثال فإن الإنسان برغم كل التقدم العلمي والتقني مازال عاجزا وحائرا أمام الموت، الذي يشكل مصدرا للخوف الإنساني الدائم والعميق.

إن الموت بما يبعث على الخوف والتفكير الدائم بما بعد الموت هو المنشئ الرئيسي للحضارة الإنسانية، فقد نشأت المدن حول القبور! ذلك أن الإنسان جعل من القبور ساحات مقدسة يلجأ أليها ويزورها، وصارت ساحات للطقوس والاحتفال والتجارة والتقاضي ثم السكن والتنظيم الاجتماعي والتحضر والتمدن.[٣٢]

يلاحظ سبينوزا أن الكتاب (التوراة) لا يخالف العقل أو يُناقِضُه، وأن التعاليم التي أتى بها الأنبياء سهلة للغاية يسهُل على الجميع إدراكها، وكلُّ ما في الأمر أنَّ هذه التعاليم قد عُرِضت بأسلوبٍ شاعري واستندت إلى أقدَرِ الحُجَج على حضّ عامَّة الناس على طاعة لله. وبناءً على ذلك فإن "الكتاب" يترُك للعقل حُريَّته الكاملة، وبأنه لا يَشترك مع الفلسفة في شيء، بل إن لكلٍّ منهما مَيدانه الخاص. هكذا يتوصل سبينوزا إلى أن الكلام الذي أوحى به الله ليس عددًا مُعيَّنًا من الأسفار بل فكرة يَسيرة من الأفكار الإلهية أوحي بها للأنبياء، وهي وجوب طاعة لله بروحٍ خالصة، وذلك بِمُمارسة العدل والإحسان. ولذلك فإن الحرية لا تضر الدين أو الدولة والسياسة. وهكذا "لكي تضمَن الدولة سلامتها، يَجِب أن يكون كلُّ فردٍ حرًّا في أن يُفكِّر فيما يُريد وأن يُعبِّر عن تفكيره."

إن الإنسان في مواجهته للخوف شكل وعيه بالحرية بما هي قدره الوحيد ليجتهد ويبحث عن الصواب، ويكفيه لأجل ذلك أن يكون صادقا "قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم"[٣٣] فالخيار البديل للحرية هو الخرافة، وبين طمأنينة الخرافة ولا يقين الحرية يراوح الإنسان أو يوازن تصوراته وخياراته التصورية والسلوكية للحياة والحضارة، وينشئ أيضا قدره. هو لن يعرف، وربما يعرف عندما يموت، وفي القرآن "فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين"[٣٤] فسر اليقين أنه الموت، ووصف الموت باليقين لقرينته الحصرية باليقين. بمعنى أنه لا يقين إلا الموت حتى صار الموت يوصف بأنه اليقين. فأنت لا تعرف على وجه اليقين سوى الموت، إنه الخوف إيجابا بما هو البحث صادقا ونزيها عن الصواب، وسلبا أو شقاء بما هو الخرافة والوهم.

يبدو واضحاً أنّ سبينوزا، وإن كان يُقدّم مقاربة فلسفية عقلانية للعلاقة بين العلم والدين، فإنّه ينطلق في الوقت نفسه من منطلق الإيمان بالله والكتاب، أو هو يبحث عن سبيل للمؤمنين كيف يوفقون بين إيمانهم وبين العلم، دون أن يتعارض إيمانهم بالله مع العقل، وفي الوقت نفسه يظلون على التزامهم بالعقل باعتباره أداة الإنسان الأساسية للمعرفة والتمييز بين الخير والشرّ، وهو جدل طويل لا يتوقف.

"لم يكن سبينوزا كما جرى تقديمه في أغلب الأحيان فيلسوفا تجنب المجتمع، وكرس حياته لصياغة نظام ميتافيزيقي تجريدي، لكنه وإن كان زاهدا يعيش حياة بسيطة في وسط الرفاهية المزدهرة في

هولندا في القرن السابع عشر كان يعيش حياة اجتماعية سياسية حافلة وعميقة، يشغله القلق تجاه المجتمع الذي يعيش فيه، وكان يشارك مع مجموعة من الأصدقاء الفلاسفة والسياسيين المتميزين في نقاشات لاهوتية وسياسية، وكان شخصية مشهورة تعرض بسبب آرائه وتحليلاته العميقة والجريئة لعداء رجال الدين والسياسة معا"[٣٥]

هذا التمييز ضروري لتقييم الأفكار والمواقف ووزنها، وقبولها ورفضها، فليس كلّ شأن من الدين بمستوى غيره، وبعضها قابل للردّ والنقاش والقبول، وبعضها لا يقبل، وليس كلّ خطأ في الدين عدواناً عليه يستوجب الخصام والعداء، وليس كلّ فهم يحتاج إلى تصحيح، ففي الخطاب تتعدد الاجتهادات ويتعدد الصواب أيضاً، وذلك متروك لقبول الناس واطمئنانهم. وأمّا العلوم الدينية، فهي شأن علمي خالص يجري بحثها وإثباتها ودحضها كما يجري في تقاليد ومؤسسات العلم والبحث العلمي، وليست شأناً دينياً أو جماهيرياً أو سياسياً، ولا تستوجب التحزب والعداوة والتأييد، إلّا بمقدار ما نحشد المظاهرات والجماهير تأييداً أو رفضاً لنظرية النسبية، أو التفاعلية الرمزية، أو الشبكية، على سبيل المثال.

إنّ القدرة على تمييز الديني والإنساني، حتى في أقوال الرسول وأفعاله، هي مدخل التقدّم الديني وملاءمته المتواصلة للحياة والعصور، وفي الحديث النبوي: "إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي لَهُ بِمَا يَقُولُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَلَا يَأْخُذْهَا".[٣٦]

وبالنسبة إلى التوفيق بين العلم والإيمان، يتساءل المتدينون في عالم الإسلام، وكذلك في اليهودية والمسيحية، كيف يرد الاختلاف، أو ما يبدو اختلافاً، بين العلم والدين؟ هل يملك أهل العلم بالدين القول أو الحكم ببطلان مقولة علمية تناقض الدين أو تبدو مناقضة له؟ وهل يملك أهل العلم القول أو الحكم ببطلان مقولة دينية تبدو مناقضة للعلم؟

يقوم سبينوزا كما يقول نوبرت فوغل في كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة بأكثر المحاولات طموحا للتمييز بين ما يعرف بالعقل والعلم وبين الخرافات والأوهام، ويطبق بصرامة أساليب التحليل التاريخي والنقدي لينزع الغموض وينقض محاولات الاستدلال على المعرفة من مصادر غير معرفية. كما ينفي

الطبيعة الخارقة للنبوة والمعجزات، ويقوض سبينوزا أيضًا سلطة رجال الدين فضلا عن دورهم العلمي استنادا إلى فهمهم أو اعتقاداتهم حول الكتب المقدسة. فإذا كان الكتاب لم يفصح عن أمر فليس ثمة حق لأحد أن يوجه سلوك الأفراد والحكومات والمجتمعات بزعم المصدر الإلهي. لقد استند سبينوزا إلى

المنجز العلمي والعقلي الذي أمكن الوصول إليه في عصره ليجري مراجعات ومقاربات نقدية مازالت تصلح مصدرا للفهم والتأويل كما التأسيس لعلاقة صحيحة بين العلم والدين وبين الدين والسياسة دون تناقض مع الدين أو العلم أو الحرية. وبهذا المعنى وإدراك الهدف النهائي للعالم والتاريخ، فقد بشر سبينوزا بنهاية مركزية الإنسان.[٣٧]

حسم المسألة ببساطة يقوم على مسألة بدهية: الاستقلال الحتمي والتأسيسي بين الدين والعلم، والتقاؤهما في بعض الأحيان، لا يعني أنّهما شيء واحد، ولا يعني أنّه التقاء حتمي أو ضروري، كما لا يعني اختلافهما أنّ أحدهما خاطئ بالضرورة؛ فالدين تصديق بالقلب، والعلم عمليات عقلية وتجريبية. والدين لا يمكن إثبات خطئه، والعلم يجب أن يكون قابلاً لإثبات خطئه؛ هو عمليات ونتائج غير يقينية...، هي صحيحة في اللحظة القائمة إلى أن يثبت خطؤها، وهي موضع مراجعة واختبار دائمين.

لا حرج في الاختلاف بين الدين والعلم وتناقضهما في المسائل والنتائج، ولا يحتاج العالم المتدين أن ينحاز إلى أحدهما أو يتخلى عن أحدهما، كما لا يحتاج أيضاً إلى التوفيق بينهما. والأهمّ من ذلك أنّه لا يحتاج العالِم أو المهني أن يستمدّ من الدين المعرفة العلمية أو المهنية، ولا أن يطبّق الدين على عمله العلمي أو المهني؛ إنّه بذلك يشوّه الدين والعلم والمهن معاً، ويلحق بها ضرراً كبيراً.

نستمدّ معرفتنا بالقانون الإلهي من فهمنا للطبيعة والكون، ولذلك فإنّه قانون يشمل جميع الناس والكائنات، ولا يحابي أهل دين، ولا يستثني أحداً، ويجيب سبينوزا عن أسئلة، ويضيء قضايا في هذا المجال تصلح لجميع المؤمنين بالله من كلّ دين، ذلك أنّها قضايا يجري الجدل حولها بين أتباع جميع الأديان السماوية، وهي قضية واحدة لا فرق فيها بين دين وآخر.

يتساءل سبينوزا: هل نستطيع بالنور الفطري تصوُّر الله كمُشرّعٍ أو كأميرٍ يسنُّ القوانين للبشر؟ ماذا يقول الكتاب المُقدَّس بشأن هذا النور وهذا القانون الطبيعي؟ ما الغاية التي استُهدِفت فيما مضى من فرْض الشعائر الدينية؟ ما الفائدة من معرفة الروايات المُقدَّسة والتصديق بها؟ ويجيب: إنّ القانون الإلهي الذي يُعطي الناس السعادة الحقَّة، ويعلمهم الحياة الحقيقية، مُشترَك بين الناس جميعاً، بل إنَّنا استنبطناه من الطبيعة الإنسانية، بحيث يجِب علينا أن نعتبِرَه فطريّاً في النفس الإنسانية، وكأنّه مَسطور فيها.

يجادل سبينوزا أولئك الذين يُسلّمون بأنّ النور الفطري لا يستطيع أن يَدلَّنا على الصواب فيما يتعلَّق بالخلاص؛ فالواقع أنَّ من يعتقدون هذا الرأي، كما يقول، لا يستطيعون أن يُؤيّدوه بالعقل؛ لأنَّهم لا

يعترفون بأنّ لدَيهم أيَّ عقلٍ سليم، وإذا كانوا يتفاخَرون بأنَّ لدَيهم هبة أسمى من العقل، فإنّها في الحقيقة مَحْض خيال.

إن المرء لا يُعرَف إلَّا من أفعاله، وإذًا فَمَن يحمِل بوفرةٍ ثماراً كالإحسان والفرَح والسلام وعدالة النفس والطِّيبة وحُسن النِّية والحلم والبراءة وضبط النفس، كلُّها أمور لا تتعارَض مع الشريعة، كما يقول بولس، سواء أكان قد تعلَّم هذه الأمور من العقل وحدَه أم من الكتاب وحده، فإنَّ الله الذي علَّمَه إيّاها بالفعل، وهو بذلك يملك السعادة الروحية.

أخذت المعجزات مكوناً رئيسياً في الدين والإيمان برغم أنّها، كما يقول سبينوزا، ليست جزءاً منه وليست ضرورية لأجل الإيمان أو إثبات النبوة. الحال كما يقول سبينوزا أنه لا يحدُث شيء يُناقِض الطبيعة، فالطبيعة تحتفِظ بنظامٍ أزلي لا يتغيَّر، ولا نستطيع أن نعرف بالمُعجزات ماهية الله أو وجوده، ومن ثَمَّ لا نستطيع أن نعرف العناية الإلهية، على حِين أنَّنا نستطيع أن نعرفها كلها بطريقة أفضل بكثير عن طريق قانون الطبيعة الثابت الذي لا يتغيَّر، فالكتاب (التوراة) يعني بأمر الله وبمشيئته، ومِن ثَمَّ بالعناية الإلهية نظام الطبيعة ذاته، بوصفه نتيجةً ضرورية للقوانين الأزلية.

يترتب على هذه المبادئ التي عرضها سبينوزا (لا شيء يحدُث في الطبيعة إلَّا واتَّبَع قوانينها، وأنَّ هذه القوانين تَسري على كلِّ ما يتصوَّره. وللعقل الإلهي، وللطبيعة نظام ثابت لا يتغيَّر) بوضوحٍ تامٍّ أنَّ لفظ المُعجِزة لا يُمكن أن يُفهَم إلَّا في صِلته بآراء الناس.[٣٨]

الخلاصة والنتائج

هل يمكن إدارة الشأن الديني وتنظيمه على نحو لا يناقض الدين أو مبادئ الدولة الحديثة ولا يشجع على التطرف؟ المسألة ليست جدلاً دينيًّا أو جدلاً بين الدين وضد الدين، لكن كيف تنظم الأمم الشأن الديني؟ هي مسألة سياسية وإدارية، فوزارات الأوقاف والمقدسات والشؤون الإسلامية ومؤسسات الإفتاء والتعليم الديني وسائر المؤسسات الدينية الرسمية هي مؤسسات حكومية أنشئت وطورت مع قيام الدولة الحديثة، وقد كان المسلمون قبل إنشاء المؤسسة الدينية الرسمية مسلمين، وكانوا قادرين على تنظيم شأنهم الديني وإدارته، بدليل نشوء المذاهب الفقهية والإنتاج الفكري الديني الكبير الذي تراكم على مدى العصور والمؤسسات الدينية والوقفية المجتمعية والأهلية.

بدأت فكرة المؤسسة الدينية الرسمية "الأوقاف" لأجل إدارة الأملاك الوقفية وتنظيمها وتوثيقها واستثمارها وحمايتها من الضياع واستيلاء الآخرين عليها، ثم أضيف إليها لاحقًا إدارة الوعظ والإرشاد. هل يجب على الدولة أو هل تستطيع أن تفرض محتوًى دينيًّا على الناس؟ تستطيع السلطة

بكفاءة مؤسسية تشبه ما تقوم به دائرة الأراضي والمساحة أو وزارة المالية أو البلديات أن تدير تنظيم الأملاك والعقارات الوقفية، وتستطيع أن تنظم عمليات الحج في النقل والتسجيل والعمل اللوجستي كما تفعل وزارة السياحة أو وزارة النقل أو الشركات السياحية، ولا بأس في ذلك سواء كان تابعًا لوزارة متخصصة مثل الأوقاف أو لوزارة المالية أو غيرها من المؤسسات الحكومية، لكن المحتوى الديني كان عمليات فكرية متنوعة ومتعددة مستمدة من ثقة الناس وأسلوبهم في تلقي الدين وفهمه، ولا يمكن حمل الناس على فهم معين للدين أو منعهم منه. فهذه مسألة لا سلطان لأحد عليها، ولا مجال للسلطة في ذلك سوى أن تترك المذاهب العلمية والفقهية تعمل، ويكون دورها في ذلك هو تطبيق القانون ومنع الاعتداء عليه أو الإساءة إلى الحقوق العامة والفردية، لكن ليس مطلوبًا من وزارة الأوقاف ولا تستطيع أن تلزم الناس أو تفرض عليهم أو تتدخل في فهمهم للدين.

المصادر الأساسية

[٤] سفر التكوين، ٨ :١٥.

[٥] سفر القضاة، ١٧ :٦.

[٣٣] القرآن الكريم: الآية ١١٩، سورة المائدة.

[٣٤] القرآن الكريم: الآية ٩٩، سورة الحجر.

[٣٦]صحيح البخاري، ٧١٦٩ وصحيح مسلم ١٧١٣.

المراجع

[١] باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ١٣٢.

[٢] باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ١٣٢.

[٣] باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ١٤٩.

[٦] باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ١٥٢.

[٧] باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ١٥٥.

[٨] باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ١٧٠.

[٩] باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ١٧٣.

[١٠] باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ١٧٩.

[١١] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ١٢٣.

[١٢] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ١٢٤.

[١٣] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ١٢٤-١٢٦.

[١٤] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٢٠١.

[١٥] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٢٠٢-٢٠٣.

[١٦] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٢١١- ٢١٣.

[١٧] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٢١٦.

[١٨] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٢٢٩-٢٣٢.

[١٩] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٢٣٢-٢٣٦.

[٢٠] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٢٣٨-٢٤٢.

[٢١] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٢٥١-٢٥٢.

[٢٢] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٢٥٤.

[٢٣] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٢٦٥.

[٢٤] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٢٧١-٢٧٢.

[٢٥] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٣٤٥-٣٤٦.

[٢٦] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٣٥٧-٣٦١.

[٢٧] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٣٦٤-٣٧٠.

[٢٨] مرجع سابق: باروخ سبينوزا: " رسالة في اللاهوت والسياسة" (٢٠٠٥)، ص ٣٧١-٣٨٣.

[29] Joseph E. LeDoux: “Evolution of human emotion: A view through fear - Progress in Brain Research” (2012), Pages 431-442.

[30] Jeremy C. Ganz: “Progress in Brain Research” (2024), Pages 1-4.

[31] JARYMOWICZ1 AND BAR-TA: “The dominance of fear over hope in the life of individuals and collectives” (2006), European Journal of Social Psychology Eur. J. Soc. Psychol. 36, 367–392.

[٣٢] ممفورد: " المدينة عبر العصور" (٢٠١٦).

[35] Susan James: “Spinoza on Philosophy, Religion, and Politics the Theologico-Political Treatise” (2012).

[37] Norbert Vogel: “Spinoza, Science and Scripture; The Theological-Political Treatise and its relation to the scientific revolution” (2017).

[38] Rocca: “The Oxford Handbook of SPINOZA Edited by MICHAEL DELLA ROCCA” (2018).